

كتاب

« طهارة العرب »

تأليف

الاستاذ الفقيه المالكي الاديب اللغوي النحوي
احمد بن الامين الشنقيطي



الله الاستاذ اذ كان نزلا بقازان في رمضان سنة الف وثلاثمائة وست
وعشرين (١٣٢٦) دفاعا عن الاسلام وذبا عن نبيه عليه الصلاة والسلام . بطلب
رجل من مساحي روسيا اطلمه على كتاب في « الامومة عند العرب » مؤلف
اصله بقلم عالم يوناني يبحث عن مسألة علمية هي : « الابوة اقدم في العالم ام الامومة ؟ »
مترجم بقلم داع من دعاة النصرانية استخدم هذه المسئلة في الطعن على طهارة نسب العرب
متذرا عابه الى الطعن في نسب نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام ، مطبوع بقازان من
زمن بعيد قد نشر منه نسخ كثيرة بين علماء روسيا ثم لم يوجد بينهم من يحمله
دينه على الدفاع عن نبيه ويمكنه ادبه من وضع كتاب في تنزيه العرب عن شين الاشتراك
في النسوة والازدحام على الفروج وقد كان ذلك الزم شيء يجب عليهم حيث تجدهم
اعجل الناس ردا على كل كتاب يكتبه عالم اسلامي يهديهم الى هدى السلف ويذودهم
عن باطل الخلف . فنحن نشكر حضرة الاستاذ على ما قام عنا بالزم فريضة علينا
وعلى ما خدمنا في ديننا حين كان ضيفا كريما عندنا .

قازان لليلتين مضفا من رمضان سنة ١٣٢٦ موسى جارالله .

بسم الله الرحمن الرحيم

حدا لمن رفع منارالحق واعلاه وقوض بنيان الباطل واوهاه .
وصلى الله وسلم على من لاني بعده محمد سيد الاولين والآخرين وعلى
آله وصحبه الطاهرين .

وبعد فيقول جامع هذه السطور ان دعاة النصرانية قد خلعوا ربة
الاداب وتمدوا حدودالقانون وصاروا، حيث لم ينجحوا في امرالدعوة،
يهجمون على المسلمين ليفسدوا عليهم دينهم ككرها اوخدعا . ثم اى
نظرت في كتاب « الامومة عندالعرب » فوجدت غرضه الذى يرمى
اليه الطعن في نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن طهره الله فى الازل
فلا يمكنه الخدش فيه بأخرة . فاردت ان اعيد بعض مافى ذهنى من
سيرة القوم دفاعا عن الاسلام وذباً عن نبيه عليه الصلاة والسلام ليحق
الحق ويبطل الباطل ولو كره المبتلون .

اما صاحب الكتاب المذكور فانه بناه على غير اساس واسسه
على دعائم غير علمية . وجل اعتماده النقل عن سائح يونانى مجهول
الحال لا يعرف لسان العرب ولاعوائدهم ولم يمر ببلد معروف من
بلادالعرب ، او اقوال ضعيفة نقلها بعض المغفلين من اهل التاريخ
ترجم الى كتاب مثالب العرب الذى وضعه زياد ابن ابية . فانه لما
ادعى اباسفيان ابا علم ان العرب لا تقرله بذلك مع علمها بنسبه فعمل
كتاب المثالب والحق بالعرب كل عيب وعار وباطل وافك وبهت .
ثم ثنى على ذلك الهيثم بن عدى ، وكان دعياً فاراد ان يعر اهل الشرف
تشفيأ منهم . ثم جدد ذلك ابو عبيدة معمر بن المثنى وزاد فيه لان

اصله كان يهودياً . ثم نشأ غيلان الشعبي الوراق وكان زنديقاً ثنوياً
فعمل لظاهر بن الحسين كتاباً خارجاً عن حد الادب بدأ فيه بمشالب
بنى هاشم ثم بطون قريش ثم سائر العرب ونسب اليهم كل كذب
وزور ووضع عليهم كل افك وبهتان . ووصله عليه طاهر بثلاثين ألفاً .
ومما يستدل به هذا المتحامل على بطلان انساب العرب انتساب
بعضهم الى امهاتهم . وسبب خطأ هذا الفهم عدم معرفته لعوائدهم .
فان من عوائدهم انهم ينسبون الشخص الى مرضعته التي لم تلده وربما
كانت مستأجرة . وربما نسبوه الى اخيه او عمه . من هذا تسميتهم شيبة
جد النبي صلى الله عليه وسلم عبدالمطلب . والمطلب كان عمه . وربما
نسبوا الشخص الى زوج امه . واكثر من ينسبون الى امهاتهم الايتام
الذين كفلتهم امهاتهم .

لا جرم ان العرب اظهرت نسباً من جميع الامم من سالف الدهر الى
ان بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم . ويؤيد ذلك اعتراف اللورد
كرومر لهم بمحفظ النسب ومنع الجار مع شدة تحامله على المسلمين عموماً
وعلى العرب خصوصاً . ومن كان اللورد كرومر انصف منه فان بينه
وبين الاستدال مراحل .

ربما حكى مؤلف هذا الكتاب عن المجوس شيئاً يلائم غرضه .
فيجزم بمجرد حدسه واستنباطه ان ذلك كان موجوداً في العرب .
وهذا حكم باطل وقياس فاسد لان مجرد الشك لا يصار اليه مع اليقين
المتداول بين الناس .

قال مؤلف الكتاب المذكور « ان اقدم الاخبار التي وصلت اليها
عن عرب الجاهلية هي ما نقلها السائح اليوناني الشهير سترابون
في معجمه الجغرافي المشهور حيث جاء عن امر الزواج عندهم الى ان قال
ولهم جميعاً امرأة مشتركة يختلقون اليها ... الخ »

اقول لا يمكننا ان نأخذ بنقل هذا اليوناني وعندنا ما نعلم انه اصح
واشهر. فمن ذلك :

ان اقدم العرب طسم وجديس . كانا في الدهر الاول فانقرضوا .
وسبب انقراضهم الانفة مما ادعى هذا المتحامل وذلك ان ملكهم عمليقاً
تعدى الحد في الظلم والتجبر . فاته يوماً امرأة من جديس اسمها هزيلة .
وكان زوجها طلقها واراد ان ينزع منها ولدها . فقالت ايها الملك :
اني حملته تسعاً ، ووضعته دفعاً ، وارضعته شفماً ؛ حتى اذا تمت اوصاله
اراد ان يأخذه كرها ، وان يتركني من بعده ورها . فقال لزوجها
ما حجتك ؟ فقال ايها الملك : انها قد اعطيت المهر كاملاً ، ولم اصب منها
طائلاً ، الا ولیداً خاملاً ، فافعل ما كنت فاعلاً . فامر بالفلام ان ينزع
منها جميعاً ويجعل في غلمانها ؛ وقال لهزيلة : ابقيه ولداً ، ولا تنكحي
احداً ، او اجزيه صفداً ؛ فقالت هزيلة : اما النكاح فانما يكون بالمهر ،
واما السفاح فانما يكون بالقهر ، ومالي فيهما من امر . فلما سمع عمليق
كلامها امر ان تباع مع زوجها ويسترقا . فانشأت تقول :

« اتينا اخاطم ليحكم بيننا » فاتخذ حكماً في هزيلة ظالماً

« لعمرى لقد حكمت لا متورعاً » ولا كنت فيما يبرم الحكم عالماً

فاحدث هذا الهجوان عمليقاً المذکور امر ان لا تزوج بكر من

جديس الا افتزعها . حتى كان آخر امره ان فعل ذلك بالشموس ،
فخرضت قومها بقولها :

لا احد اذل من جديس اهكذا يفعل بالعروس

يرضى بهذا يا لقومي حر اهدى وقد اعطى وسيق المهر

لاخذه الموت كذا لنفسه خير من ان يفعل ذا بعمره

فلما سمع قولها اخوها الاسود قال لقومه يا معشر جديس : ان هؤلاء

القوم ليسوا باعز منكم في داركم الا بما كان من ملك صاحبهم ؛ واتم

اذل من التيب . فاطيعوني يكن لكم عز الدهر وذهاب ذل العمر .
 فقالوا نطيعك ولكن التوم اكثر منا واقوى . فقال انى اصنع للملك
 طعاما ثم ادعوهم اليه . فاذا جاؤا يرفلون في حللهم مشينا اليهم بالسيوف
 فقتلناهم . وانا انمرد بعليق ، وينفرد كل واحد منكم بجليسه . فدعاهم
 الاسود جأوا . حتى اذا اخذوا مجالسهم ومدوا ايديهم الى الطعام اخذ
 الاسود وقومه سيوفهم من تحت اقدامهم (كانت مدفونة في الرمل .)
 فشد الاسود على عمليق فقتله ؛ وكل رجل على جليسه . فلما فرغوا من قتل
 الاشراف شدوا على السفلة فانوهم . ونجا بعض طسم فاستغاث بحسان
 ابن تبع . ففزا حسان جديسا فقتلها وخرّب ديارها وتفانى الحيان .
 وهذا فيه دليل جلى على ان الاشتراك لم يكن في العرب
 الجاهلية اصلا . ولو كان الامر كما ذكر المتحامل لاحتجت هزيمة المتقدمة
 به على زوجها وقالت ان الولد ليس منك وانما هو من غيرك . ويدل عليه
 ايضا قولها واما السفاح فانما يكون بالتهر ؛ ولما اشماز جديس من فعل عمليق .
 ومن قديم غيرتهم قصة اجاء بن عبدالحى . وهو رجل قديم اقدم
 من قصة الشموس المتقدمة . عشق امرأة يقال لها سلمى وكان لها حاضنة
 يقال لها العوجاء فكان اجاء وسلمى يجتمعان في منزلها حتى انذر بهما
 اخوة سلمى وهم الغميم والمضل وفدك وقائدو الحدان وزوجها . فخافت
 سلمى وهربت هي واجاء والعوجاء . وتبعهم زوجها واخوتها فلحقوا
 سلمى على الجبل فقتلوا هناك فسمى الجبل باسمها . ولحقوا العوجاء على
 هضبة بين الجبلين فقتلوا هناك فسمى المكان بها ولحقوا اجاء في جبل
 آخر فقتلوه فيه فسمى به . واتقوا بعدها ان يرجعوا الى قومه فصار
 كل واحد الى مكان فاقام به فسمى ذلك المكان باسمه . وفي هذه القصة
 فائدة اديية هي الرد على النحاة في قولهم ان اجاء مؤنثة غير منصرفة لانه
 جبل مذكر وسمى باسم رجل . فيكون مذكراً في اصله .

ومن انفة العرب قتل المرار امرأته هنداً لما سبها ابن الهولة وكان غائباً. فلما قدم تبعه وقتله؛ وانقذها منه وربطها في اذنان الخيل حتى تقطعت اوصالها. ولم يرض لنفسه ان يسكها بعد ان نال منها ابن الهولة وطرد.

ومن انفة نساء العرب قصة فاطمة بنت الحرشب الانمارية احدى المنجبات وهى ام الكلمة من بنى عيس. وكانت وقعت شحناء بين ابنتها الربيع وابن عمه قيس بن زهير وسبها ان الربيع اغتصب درعاً لقيس وابى ان يرداها فاعترض قيس امه المذكورة في طعام من بنى عيس فاقتاد جلها يريد ان يرتتها بدرعه. فقالت له اين ضل حلك يا قيس؟ اترجو ان تصطليح انت وبنو زياد ابدأ وقد اخذت امهم فذهبت بها يميناً وشمالاً فقال الناس في ذلك ماشاؤا، وحسبك من شر سماعه؟ فارسلتها مثلاً فعرف قيس ما قالت، فضلى سبيلها، ثم طرد ابل الربيع، بل قيل ابلهم كَلِّمْ فباعها بمكة لعبدالله بن جدعان فقال في ذلك:

«الم يأتيك والانباء تنمى . بما لاقت لبون بنى زياد»
«ومحبها على القرشى تشرى . بادراع واسيف حداد»
كما لاقيت من حمل بن بدر واخوته على ذات الاصاد
هم فغروا على بغير فخر وردوا دون غايته جوادى
وكنت اذا منيت بمخصم سوء دلقت له بداهية نأ د
بداهية تدق الصلب منهم بقصم او تجوب عن القوآد

القرشى هو عبدالله بن جدعان. وكان قيس باع الابل له. دلقت زحفت اليه. ونادصفة داهية يقال ناددت الداهية فلانا دته. وذات الاصاد اسم موضع. ولو اخذ امهم لعظم الخطب ولافضى ذلك الى سفك الدماء. فعدل الى الابل. وكان الربيع هو الذى تولى عبء حرب داحس والغبراء انتصاراً لقيس.

ومن عقل فاطمة الانمارية المذكورة سابقا قصتها مع الضيف الذي استضافها فاكرمته واحسنت قراه فراودها عن نفسها فزجرته فلم يسته. فامرت عبيدها فكثفوه ونحته وبعثت الى ابنها الاكبر فاخبرته بما جرى فاشار اليها بقتله وكل اخوته يشير اليها بذلك سوى الربيع فانه قال ان قتلناه قال الناس فعل بامهم . فسمته الكامل . ثم ان الربيع اكرمه وشيعه . ولما انفصلا عن الناس قال له قبحت من ضيف .

ومن ائمة العرب وعدم تساهلهم فيما رماهم به هذا المتحامل قصة التعمان مع المتجرودة . فانه لما اطلع على ما بينها وبين المنخل من الريبة قتلها .

ومن امثال العرب القديمة : « كل شيء مهه ما خلا النساء و ذكرهن » اي يسير سهل يحتمله الرجل حتى يأتي ذكر حرمة فيمتعض .

فمن عدم مسأحتهم في ذكر امهاتهم قصة جذع بن سنان الذي يضرب به المثل : وهي ان عامل الملك اتاه في خرج وجب عليه فدفع اليه سيفه رهناً فقال له « ادخله في حرامك » ففضب جذع وقنعه به . فقيل « خذ من جذع ما اعطاك . » فذهبت مثلاً .

ومن ذلك قصة عمرو بن كلثوم التغلبي . وملخصها : ان عمرو بن هند الملك المشهور سال هل في العرب امرأة تأنف من خدمة امي ؟ فقيل له : ان هند بنت مهلهل ام عمرو بن كلثوم تأنف من خدمة امك . فدعا الملك ابنها للمنادمة وامره ان يستحب امه معه . فضربت للملك وابن كلثوم خيمة . ولامهما اخرى . وامر الملك امه ان تستخدم ام ابن كلثوم ولو بقليل . فطلبت ام الملك منها ان تناولها شيئاً . فقالت لها « لتقم صاحبة الحاجة لحاجتها . » فلطمتها . فصاحت : « واذلا لامك يا عمرو ؟ » فاخترط سيفه وقتل الملك وقال معلقته المشهورة . منها :
تهد لنا وتوعدنا رويداً متى كئنا لامك مقتوناً

ومن ذلك قصة ابن دارة: فانه هجا زميل بن ابيرد وقال:
 « ابلغ فزاره اني لن اسالمها حتى ينك زميل ام دينار »
 وام دينار كنية ام زميل . فاقسم زميل « لا يغسل رأسه ولا يأكل
 لحماً حتى يقتله . » فضربه ضربة مات منها . فقال الكميث بن معروف:
 فلا تكثروا فيها الضجاج فانه محاسن السيف ما قال ابن دارة اجمعا
 وكان ذلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ولو كان شكاه اليه لحبسه .
 كما فعل بضائبي البرجمي :

فانه استعمار كلباً من بعض بني جرول بن نهشل وكان يصيد به
 الوحش والظباء والضباع . فطال مكث الكلب عنده فطلبوه فامتنع
 من رده . فركبوا يطلبون كلبهم . فقال لامرأته اخلطي لهم في قدرك
 من لحوم البقر والظباء والضباع فان عافوا بعضاً واكلوا بعضاً تركوا
 كلبك لك . وان هم لم يفرقوا فلا كلب لك . فلما اطعمهم اكلوه ثم اخذوا
 كلبهم . فغضب وقال ابياتا رمى فيها امهم بذلك الكلب . منها :
 فيا راكبا اما عرضت فبلغن امامة عني والخطوب تدور
 فامكم لا تسلموها لكلبكم فان عقوق الوالدات كبير
 فشكوه الى عثمان رضي الله عنه فحبسه . اما زميل فان الغضب حمله على
 قتل ابن دارة فقتله وقتل به .

ومما ينظم في هذا السلك قصة تابط شراً مع زوج امه ابي كبير
 الهذلي : فان تابط شراً مات ابوه وهو صغير لا يعقل فلما ادرك سأل
 امه « من هذا الذي اراه عندك ؟ » فاخبرته انه زوجها . فاقسم لا يراه
 عندها الاقتلها . فامرت ابا كبير بقتله . فاحتال ابو كبير لذلك . فلما
 لم يقدر عليه تركها .

ومن ذلك قصة ابن الدمينية : فان امرأته رميت بشخص فبدأ بمن
 رميت به فقتله . وثني بها وثلث بيتها منه فقتلها . وقال : « لا تتخذ من
 كلب سوء جرؤا . »

ومن ذلك قصة هدية بن خشرم وابن عمه زيادة . وملخصها انهما خرجا في ركب من قومهما . فكانا يتماقبان السوق . فارتجز زيادة وذكر اخت هدية فقال :

- « عوجى علينا واربعى يا فاطما ما بين ان يرى البعير قائما »
 « الاترين الدمع منى ساجما حذار دار منك ان تلاثما »
 « فمرجت مطرداً عراها فعماً يبذ القطف الرواسما »
 « كان في المثناة منه عائما انك والله لان تبا نغما »
 « خوداً كان البوص والمآ كما منها تقاً مخالطاً صرائما »
 « خير من استقبالك السائمما ومن مناد تبني معا كما »

فمضت هدية حين سمع زيادة يرتجز باخته فنزل فرجز باخت زيادة وكانت تدعى ام خازم فقال :

- « لقد ارانى والغلام الحازما نزجى المتلى ضمراً سواها »
 « متى تقول القاص الرواسما والجللة الناجية العياها »
 « يبلغن ام خازم وخازما اذا هبطن مستحيراً قائما »
 « ورفع الحادى لها الهماها الاترين الحزن منى دائماً »
 « حذا ردار منك ان تلاثما والله لايشفى القواد الهائمما »
 « تساحك اللبات والمآ كما ولا اللعام دون ان تلازما »

فنشاتا وتسايا طويلا فجز بينهما القوم حتى امسك كل واحد منهما عن الاخر وبقى كل مضطئنا على الاخر . وكان هدية يرى انه مظلوم لان اخته كانت معه . فقتل زيادة بعد ذلك . فاقيد به وكانت هذه الواقعة في خلافة عثمان .

وهذا يدفع ما ذكره المتحامل من ان العائلات كانت شركاء . وهذان الشخصان وان كانا في صدر الاسلام فامرهما هذا من الاخلاق المألوفة قبل الاسلام ولان قبيلتهما من آخر العرب اسلاما .

حل غريب هذه الابيات : ما بين ان يرى البعير قائماً اي ما بين مناخ
البعير الى قيامه . مطردا اي متتابع السير . عراها اي شديداً . فمما اي
ضخماً . الرواسم اي الابل التي تسير سيراً فوق العنق . والرسيم هو
السير فوق العنق . والمثاة الزمام . عائماً اي سابحاً . لان تباعث اي لان
تكلم . والبوص اي العجز . والمآ كم ما عن يمين العجز وشماله . والنقا
ما عظم من الرمل . والصراثم دونه . والسعائم جمع سوم وهي الريح
الحارة تكون غالباً بالنهار .

السواهم جمع ساهمة وهي الضامرة . متى تقول : هذا شاهد من
شواهد اعمال القول عمل الظن . والجللة بالكسر كبار الابل . والناجية
السريرة تنجو بمن يركبها . والعياهم جمع عيهم وهي الناقة الحسنة الخلق .
والمستجير هو الفقير الذي يحارفيه القوم . والقاتم هو الكثير القتام وهو
الغبار . والحادي الذي يحدو الابل . والهاهم جمع همهمة وهي الصوت .
والتمساح من المسح . والمام الزيارة غياً . والمعنى لا يشفى القواد
الهائم كثرة مسحك لبات ام خازم وما كها ولا زيارتها غياً .
وانما يشفيه ان تلازمها من غير فراق .

ومن هذا قصة القتال الكلابي مع ابن عمه زيادة . فانه رآه يكلم
اخته . فاقسم ان رآه مرة اخرى ليقبلته . فراه يوماً آخر فحمل عليه
ليقتله . ففرغه وجعل يناشده الله والرحم ويقسم له انه لا يكلمها ابداً .
فلم ينته عنه . فمر القتال برمح مركز فمظف عليه فقتله فقدم . وقال :

« نشدت زياداً والمقامة بيننا وذكرته ارحام سعد وهيشم »

« فلما رأيت انه غير متته املت له كفى بلدن مقوم »

« ولما رأيت اني قد قتلته ندمت عليه اي ساعة مندم »

وهذا مشهور عن العرب حتى ان احدهم اذا اراد ان يقرع عدوه
يذكر حرمة . وذلك هو الصدع الذي لا ينجر .

ومن ذلك قصة الاقيشر واسمه الاسود . والاقيشر لقب كان يفضب منه . فانه مر بناد من بني عيس . فدعاه احدهم بالاقيشر فاجابه وقال
 « اتدعوني الاقيشر ذلك اسمي وادعوك ابن مظفئة السراج »
 « تناجي خلتها بالليل سراً ورب الناس يعلم ماتناجي »
 فسمى الرجل ابن مظفئة السراج وانسحب ذلك اللقب على بنيه من بعده . ولم يعيرهم باكثر من ان امهم تظفي السراج لتكلم خلتها . فنضحهم بهذا . وهذا يدل قطعا على تحاشي القوم ممارمهم به هذا المتحامل .
 ومن ذلك قصة الشماخ بن ضرار الفطاني . وكان اقبل من مصرفي ثر من قومه ومعهم جماعة اخرى وكانوا يتماقبون على السوق . فعرض الجليح بامرأة الشماخ فقال :

طيف خيال من سليمي هائجي والقوم بين لقلق وعالج
 بينهما في طرق مناهج تخدي بناكل خنوف فاسج
 ياليتي كلمت غير خارج ام صبي قدحبي اودارج
 غرئي الوشاح كزة الدمالج

ففضب الشماخ فنزل وعرض بامرأته . فاخترط القوم سيوفهم وهموا بالمقاتلة . وكان ذلك ليلاً فادعى احد رفقاءهم انه نهش . فاقبلوا يسقونه ويعالجونه حتى سكن ما بهم .

ومما يوضح ذلك ايضا قصة الخطيئة . وكان نزل على بني بغيض لما تحول عن الزبرقان فسالوه ان يخبرهم بما يحب ليفعلوه بما يبغيض ليجتنبوه فنهاهم ان يفتي احدشبانهم بحيث تسمع بته . وكان الخطيئة هذا مغموز النسب مشهوراً بالدناءة واللؤم في الجاهلية وبقلة الدين لما اسلم وكان لا يقري الضيف ، وربما قرأه ومن عليه به وكان يعرض العرب على الردة ويقول :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيالهننا ما بال دين ابى بكر

ايورثها بكرة اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
واذا تدبرت ما حكى هذا المتعامل وجدته يخالف سيرة القوم :
فانهم كانوا يعيون من راوا منه الميل الى السفه . وكان كليب المشهور
يعيب اخاه مهلهلاً ويسميه زير النساء . ولما قتل كليب واخذ اخوه
مهلهل بثاره قال قصيدته التي منها :

« فلو نبش المقابر عن كليب فيخبر بالذنائب اي زير »

« بيوم الشعثين لقر عيناً وكيف لقاء من تحت القبور . »

والذنائب موضع . ويوم الشعثين يوم لمهلهل على بني بكر .
ومن الدليل على انهم كانوا لا يساحون احداً في فصل القيح ان
حسان ملك حمير وهو احد الاذواء غلب عليه لقباً « ذومعاهر » لانه كان
يرمى بالفجور .

ومما جرانسافرة بين علقمة بن علاثة وبين ابن عمه عامر بن
الطليل قول علقمة له : « انك اعور البصر عاهر الذكر . وانا عفيف . »
وهذا مشهور عن العرب حتى ان الرشيد الخليفة العباسي قال :
« ما احوجنالي اخلاقهم مع ديتنا . »

ولقريش من الطهارة والعفاف والافتة ما ليس لغيرهم : يشهد لذلك
قول عبدالله بن عبدالمطلب والد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد
راودته امرأة ذات جمال عن نفسه :

« اما الحرام فاللمات دونه والحلل لاحل فاستينه »

« وكيف بالامر الذي تأتينه يحمي الكريم عرضه ودينه . »

وقالت هند بنت عتبة ، لما تلا عليها النبي صلى الله عليه وسلم
« ولايسرقن ولايزنين » (سورة الامتحان - ١٢) ، : ما اقبجه حالاً .
فكيف به حراماً ! »

اما الحجاب فانه كان معروفا عند العرب . والاسلام زاده
 كانت الجارية من قریش اذا بلغت مبلغ النساء يدخلها اهلها
 دار الندوة فيكسوها رجل من بني عبدالدار يسمونه محمضا فتجذب .
 وكذلك من يمتد به من قبائل العرب . يشهد لذلك قول مضر بن
 ربیع الاسدي وهو جاهلي :

« ويوم من الشعرى كان ظباءه كواعب مقصور عليها ستورها »
 « نصبت له وجهي وكلفت حيه افانين حرجوج بطبيء فتورها »
 ولولا ان الحجاب معلوم عند اهل الجاهلية لما شبه الظباء الكوانس
 بكواعب مقصور عليها ستورها .

ويدل عليه قول عمرو بن معدى كرب الزبيدي يصف بعض
 حروبه في الجاهلية :

لما رايت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
 وبدت لميس كانها بدر السماء اذا تبسدى
 وبدت محاسنها التي تخفى وكان الامر جدا
 نازلت كبشهم ولم ار من نزال الكيش بدا
 يعني ان محاسنها انما بدت اشدة الفزع . ولولا ذلك لم تظهر .

وقال الآخر :

« جزى الله يوم الروع خيرا فانه ارانا على علاقته ام ثابت »

وقال قيس بن زهير :

اخى والله خير من اخيكم اذا الحفرات ابدن الخداما
 قتلت به اخاك بخير عبس فان حربا حذيف وان سلاما

وقال الآخر :

فلا تعذلى في حنوج ان حنوجا وليث عفرين لدى سواء
 حميت عن العهار اطهار امه وبعض الرجال المدعين جناف
 جنافات به سبط العقام كانما عمامته بين الرجال لواء

ولسنا نريد بالحجاب في الجاهلية الحجاب الذي امر به في الاسلام .
لان حجاب اهل الجاهلية كان يبدأ من ادراك الجارية فاذا تهذبت وعلمت
ما يقبح وما يحسن يصير في صورة غير تلك . فمن هناك كانوا يتسامحون
في بعض الحديث اذا نقيت الريبة . يدل على ذلك وصف اهل الجاهلية النساء
بربات الحدور ونحو ذلك . قال امرؤ القيس :

ويوم دخلت الحدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات انك مرجل
والحدر ستر يمد للجارية في ناحية البيت وعلى الهودج
وله ايضاً

ويضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت احراسا واهوال معشر على حراس لو يسرون مقتلى
اذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض اثناء الوشاح المفصل
اي رب امرأة لزمت خدرها تشبه اليضة تمتعت بها غير خائف من
احد . يصف نفسه بالعظمة لانه كان ملكا . والمرأة تشبه باليضة من ثلاثة
اوجه : (١) الصحة والسلامة من الطمث (٢) الصيانة والستر لان الطائر
يصون بيضه ويحفظه (٣) صفاء اللون ونقاؤه .

وقوله لو يسرون مقتلى اي هم حراس على اسرار قتلى . وذلك غير
كائن لنباهتي وذكرى ، وهذا دليل على ما قصدنا لانه مع قوته ما يمكنه
الوصول اليها الا بعد نوم الحرس واعترف انهم لو امكنهم قتله لفعلوا .
ومما يوضح ان النساء في الجاهلية كن يحتجن قول سبرة بن عمرو
القعقيسي يهجو بني نهشل وهو جاهلي مشهور :

« اضمر بن ضمرا بلق الاست والقفا وهل مثلنا في مثلها لك غافر »
« اتسى دفاعي عنك اذ انت مسلم واذا سال من ذل عليك قراقر »
« ونسو تكم في الروع بادوجوها يخلن اماء والا ماء حراثر »
« يسلخن بالليل الشوى باذرع كابد السباع والرؤس حواسر »

قوله « ونسوتكم في الروع ... » معطوف على جملة الحال السابقة قال المرزوقي وصف الحال التي منى بها حين نصره مخاطبه . والمعنى ان نساءكم تشبهن بالاماء مخافة السبي حتى تبرجن وبرزن مكشوفات ناسيات للحياء وان كن حرائر . وانما قال هذا لانهم كانوا يقصدون سبي من يسبون من النساء الحاق العار واغتنام الفداء والمال . ولما كان الامر على هذا فالحرة في مثل ذلك الوقت كانت تشبه بالامة لكي يزهد في سبيها . ومعنى والاماء حرائر ان اللاتي يحسن اماء حرائر ولو قال تخال اماؤهن حرائر لكان مأخذ الكلام اقرب . لكنه عدل الى والاماء حرائر ليكون الذكر افخم . انتهى . فاذا ذهبن في هذه الحالة بكشف الوجوه فذلك دليل على ان العيب في حال السلم احرى .

ولما بينت ان العرب كانوا يجبون نساءهم اردت ان اتبع ذلك بصيانتهم لانفسهن وحفظهن لازواجهن .

فمن ذلك : ان الخنساء حضرت حرب القادسية ومعها بنوها . اربعة رجال . فقالت لهم : « يا بني ! انتم اسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين . والله الذي لا اله غيره انكم لبنور رجل واحد ، كما انكم بنوا امرأة واحدة . ما خنت اباكم . ولا فضحت خالكم . ولا هجنت حسبكم . ولا غيرت نسبكم . وقد تعلمون ما اعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين . واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية : يقول الله « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورا بظوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فاذا اصبحتم غداً فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على اعدائكم مستنصرين . فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها وجلت ناراً على ارواقها فقيموا وطيسها وجالدوا ريسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة . »

فلما اضاء لهم الصبح باكروا مراراً كرههم فتقدموا واحداً بعد واحد يشدون الارجازيز . فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً . فاما بلغها الخبر قالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم . وارجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقر رحته . » فكان عمر رضى الله عنه يعطيها ارزاق اولادها الاربعة لكل واحد منهم مائة درهم حتى قبض وماتت الحنساء . (فانظر يرحمك الله الى هذه الشهامة والى مثل هذه الهمة العالية من امرأة عربية ! وهل صدر مثل هذه الخطبة ومثل هذا الاستبشار بشهادة الابناء من كبار الساسة وعظماء القادة ؟ لا والله ! ولو وجد من بين الساسة والقادة مثلها لصبوا له هيكلاً من فوق السماوات .)
ومما يصدقها فيما وصفت به نفسها من الصيانة حديثها مع اخيها صخر . وكانت ذهبت اليه تستجديه لما املق زوجها في المقامرة . فقاسمها صخر ماله . واعطاها خير النصفين . فاقبل زوجها يعطى ويهب ويحمل حتى انفده . فانته فقاسمها ماله واعطاها خير النصفين الى الثالثة . فقالت امرأته اما ترضى ان تقسمها مالك حتى تعطىها خير النصفين فقال :
والله لا امنحها شرارها وهي حسان قد كفتى عارها
ولو هلكت مزقت خمارها واتخذت من شعر صدارها
ومن عفافهن قصة فتاة غاب عنها زوجها . فخرجت يوماً لحاجة لها فربها راكب فرأودها عن نفسها فحثت التراب في وجهه واخبرت امها وانشأت تقول :

يا امنا ابصرنى راكب يسير في مسحنفر لاجب
فقمتم احثى التراب في وجهه عمداً واحمى حوزة الغائب
فردت عليها امها :

« الحصن ادنى لوتآيته من حثيك التراب على الراكب »
فان امها عابت عليها مفارقة حصنها وجعلته اولى لها من حثى التراب

في مسجدنفر اى في طريق ماض متمدستو . ولاحب اى بين وواضح .
واحمى حوزة الغائب اى امنع من يريد حق الغائب بسوء . لو تأييده
اى لو تعمدته .

ومن صياتهن وحفظهن لازواجهن قصة ليلي الاخيابة لما قدمت على
الحجاج ومدحته واستشدها الحجاج من شعرها وشعر توبة بن الحميرى
الذى كان يتعشقه حتى انشدته ابياتاً لتوبة يذكرها فيها :

« وكنت اذا ما ذرت ليلي تبرقت وقد راى بنى منها الفداة سفورها »

« وقد راى بنى منها صدور رأيتہ واعراضها عن حاجتى وبسورها »

فقال الحجاج ياليلي، مالذى را به من سفورك؟ قالت يا ايها الامير
كان يلم بى كثيراً فارسل الى يوم انى آتيك . وفطن الحى فارصدوا
له فلما رآنى سفرت عن وجهى علم ان ذلك لسرف لم يزد على التسليم
والرجوع . فقال الحجاج لله درك ياليلي ! فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟
فقات لا ! والله الذى اسأله ان يصلحك ، غير انه قال مرة قولاً ظننت
انه قد خضع لبعض الامر فانشأت اقول :

« وذى حاجة قلنا له لا تبع بها فليس اليها ما حيت سبيل »

« لنا صاحب لا ينفى ان نخونه وانت لاخرى صاحب وخليل . »

وادعاء ان عفان النساء وطهارتهن وحفظهن لازواجهن في صدر
الاسلام متأصل فيهن ايام الجاهلية كما فعلت ليلي اقرب الى الذهن
من استتباط سريان عادة المجوس في القديم بدليل وقوعه في بعض ام لم
تجاوز العرب ولم يبلغهم خبرها .

ومن علو همتهن قصة هند بنت عتبة : فانها قالت لا يبها انى امرأة
قدملك امرى فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على . قال لها : لك ذلك .

فقال لها ذات يوم انه قد خطبك رجلان من قومك . ولست مميالك
واحداً منهما حتى اصفه لك :

اما الاول ففي الشرف العميم والحسب الكريم تخالين به هو جأ
من غفلته وذلك اسجاح من شيمته حسن الصحابة سريع الاجابة
ان تابعته تبعك وان ملت كان معك تقضين عليه في ماله وتكتفين
برأيك عن مشورته .

واما الاخر ففي الحسب الحسيب والراى الاريب بدرارومته
وعز عشيرته يؤدب اهله ولا يؤدبونه ان تبعوه اسهل عليهم
وان جانبوه توعر عليهم شديد الغيره سريع الطيره صعب حجاب القبه
ان حاج فغير منزور وان نوزع فغير مقهور . وقد بينت لك كليهما .
فقال « اما الاول فسيد مضياح الكريمة موات لها فيماءسى
ان تلين بعداياتها وتضيع تحت خباثتها ان جاءته بولدا حقت ، وان نجبت
فمن خطأ ما انجبت . اطو ذكر هذا عنى ولا تسمه لى . اما الآخر فبعل
الحرمة الكريمة انى لا خلاق هذا الوامقة وانى لا اخذة بأداب البعل
مع لزومى قبتى وقلة تلفتى وان السليل بينى وبينه لحرى ان يكون المدافع
عن حريم عشيرته . الذائد عن كتيبتها المحامى عن حقيقتها المثبت لارومتها
غير موأكل ولا زميل عند صعصة الحرب . »

قال : « ذلك ابو سفيان بن حرب » . قالت فزوجه ولا تلقى القاء
السلس ولا تسمه سوم الضرس . ثم استخر الله فى السماء يخرلك فى القضاء .
فهذا يدل على نظرها فى العواقب حتى اختارت من يؤدبها على من
يملكها قياده .

ومن علو همهن قصة خليدة اخت الزبرقان بن بدر مع المخبل
السعدى . وهو احد المعمرين عاش كثيراً فى الجاهلية والاسلام وكان
خطب خليدة الى الزبرقان . فردده وزوجها رجلاً من بنى جشم بن عوف .

فهبجاه المخبل وعبدة بن الطيب وعمر بن الاهتم قبل ان يسلمو او قبل
 معث النبي صلى الله عليه وسلم . ثم ان المخبل صر بعد حين بخليدة وقد
 اصابه كسر وهو لا يعرفها . فأوته وجبرت كسره فلما اراد الانصراف
 اعطته جارية تخدمه وزودته . فسألها عن اسمها فقالت له ما حاجتك اليه ؟
 قال اريد ان امدحك . فقالت له اسمي رهو . فقال ما رأيت امرأة
 شريفة تسمى بهذا الاسم . (فان رهواً وصف في النساء غير حميد .)
 فقالت له انت سميتي به . فلما عرفها قال :

لقد ضل حلمي في خليدة ضلة ساعب نفسي بدها واتوب «
 « واشهد والمستغفر الله اني كذبت عايبها والهجاء كذوب «

وهذه آية في علو همة نساء الجاهلية واضحه .

ويشهد لذلك ايضاً قصة هزيلة الجديسية المتقدمة وقصة بنت
 خرشب التي تقدمت ايضاً .
 ولهن من علو الهمة ما يبرهن على ذلك .

فمن ذلك قصة امرأة المخلق ممدوح الاعشى . وما خصها انه كان
 فقيراً ذا بنات كثيرة قد عسنت . فحسنت له امرأته ان يتعرض لمدح
 الاعشى لتتزوج بناته . فتحمله ناقة لا يملك سواها وسقاه خمراً
 فدحه الاعشى بقصيدته المشهورة اولها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار في يفاع محرق .
 تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندی والمخلق .

فانشدها الاعشى بسوق عسكازا . فتسابق الناس اليهن فتزوجن عن
 آخرهن .

ومن علو همتهم قصة سعدى ام اوس بن حارثة وما خصها ان بشر
 ابن ابي خازم الشاعر المشهور هجا اوساً ونال من امه فاسره بعض العرب

فاشتراه اوس بهائتي ببيرو وعذبه . فعاتت امه فقالت ما تريد ان تصنع ؟
 فقال اريد ان احرق هذا الذي شتمنا . فقالت قبيح الله قوماً يسودونك
 اويقتبسون من رأيك . والله لك انما اخذت به . اما تعلم منزله في قومه .
 خل سيله واكرمه . فانه لا يفسل عنك ما صنع غيره . ثم انه اكرمه
 واطلقه . فصار بشر يناقض هجوه بمدحه .

فها تان التصتان كسائر الشواهد تدلان على علو همة نساء الجاهلية
 وعلى ان نساء الجاهلية لم يكن العروبة في ايدي رجالها بل كان لهن من الاستقلال
 والشأن ما يرفعهن عن الابتذال وعن كونهن مباحات لاطماع الرجال .
 ولم تزل العرب في الجاهلية تمدح نساءها بالحياء والعفة . فن ذلك
 قول الشنفرى الازدى :

« اميمة لا يخزى ثاها حليها اذا ذكر النساء عفت وجلت »
 « اذا هو امسى آب قره عينه مآب السعيد لم يسئل اين ظلت »
 ثاها ما ينث عليها من افعالها يقول اذا ذكرت افعالها لم تسؤ
 حليها لحسن مذهبها وعفتها . آب قره عينه اى رجع الى ما يسره منها .
 لم يسئل اين ظلت اى هى محجوبة لا تبرح بيتها .

قال الاصمعي هذان اليتان احسن ما قيل في خسر النساء وعفتهم .
 ومن ذلك ابيات ابي قيس بن الاسات :

« ويكرمها جاراتها فيزورها وتمتل عن اتيانها فتعذر »
 « وليس بها ان تستهين بجارة ولكنها من ذلك تحيا ومحصر »
 « وان هى لم تبرز لهن اتيانها نواعم يرض مشين التأطر »
 وكما تاذم العرب بعدم العفاف تمدح بالعفاف . قالت خرق بنت
 هفان (اخت طرفه بن العبد لامة) ترى قوهها :

« لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر »
 « الناقلين بكل معترك والطيبون معاقد الازر »

« قوم اذا ركبوا سمعت لهم لفظاً من التاييه والزجر »
 « في غير ما حش بجاء به بمنافع المهرات والمهر »
 « ان يشربوا يهبوا وان يزدوا يتوا عظوا عن منطلق الهجر »
 « والخالطين نحيتم بنضارهم وذوى الغنا منهم بذى الفقر »
 وصفت قومها بدوام الغلبة على الاعداء في قواها « سم المداة »
 وبغاية الجود والكرم في قولها « وآفة الجزر » وبفراط الشجاعة
 والبسالة في قولها « النازلين بكل مشترك » وبكمال العفاف والطهارة
 عن الفاحشة والتجور والريية في قولها « والطيون مما قدا لاذر » ونزاهة
 اللسان عن الفحش وقبح الكلام في قولها « قوم اذا ركبوا سمعت لهم لفظاً
 من التاييه والزجر في غير ما فحش » والتاييه الدعوة والنداء . تنفى انهم
 يجهتبون عبث الكلام ورديته فاذا ركبوا فلا تسمع لهم الا اصواتاً
 في زجر الخيل وندائهما وذلك في غير فحش من السنهم فلهم رفق
 بالحيوانات ايضاً . ثم وصفتهم بالكرم ونزاهة اللسان عن ردى القول
 في قولها « ان يشربوا يهبوا وان يزدوا يتوا عظوا عن منطلق الهجر »
 تعنى ان قومها اذا شربوا يجودون ويهبون الاموال وان زادوا
 في الشرب فكان بعضهم يسط البعض عن قبيح الكلام . والنحيث الخامل
 الساقط الذكر . والنضار الخالص النسب العزيز الشهير . تقول ان
 قومها خلطوا خاملهم برفيعهم وفقيرهم بغنيهم فاكتسب كل منهم
 الغنى والحاصل الحميدة فليس فيهم خامل ولا فقير .

يكفيينا في الرد على هذا المتحامل ما اشهر عند جميع الامم من افة
 العرب عن من لا يرويه كفوياً . من ذلك قصة النعمان بن المنذر : فان
 كسرى ملكه على العرب . فقيل له ان النعمان عنده بنات واخوات
 في غاية الحسن . فبعث اليه زيد بن عدى بن زيد فقال له ان كسرى قد
 احتاج الى نساء لنفسه ولولده واراد كرامتك بصهره فبعث اليك . فقال

النعمان « اما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ! »
 فقتل له زيد انما اراد كسرى ان يكرمك . ولو علم ان هذا يشق عليك
 لم يكتب اليك . ثم ان النعمان بلغه غضب كسرى فحمل سلاحه وصار
 يستجير بقبايل العرب فلم يجره احد وقالوا لا طاقة لنا بكسرى . فذهب
 النعمان الى كسرى فالتاه تحت ارجل القيلة حتى مات ولم يرض به كفواً
 مع انه هو سبب رفته .

ومن ذلك قصة مهاهل بن ربيعة : فانه اتفرد عن قومه بعد اتقضاء
 حرب البسوس ونزل في بني جنب (حي من مذحج) فخطبوا اليه ابته .
 فقال « انى طريد فيكم فمتى زوجتكم قالوا اقتسروه . » - فاجبروه
 على تزويجها ، وساقوا اليه في صداقها ادماً . فقال :

انكحها فقدما الاراقم في جنب وكان الحباء من ادم
 لوبابانين جاء يخطبها ضرج ما اتف خاطب بدم
 هان على تغلب الذي لقيت اخت بني المالكين من چشم
 لسوايا كفاءنا الكرام ولا يغنون من عيلة ولا عدم
 اسند الانكاح الى فقد الاراقم وهم بطون من تغلب . ولو وجد
 منهم احد لما انكحها في جنب . وقال ان هذا الانكاح مع عدم الكفاءة
 وخساسة المهر لم يكن عن رضاه بل هو اكره على ذلك . يدل عليه قوله لوبابانين
 جاء يخطبها يعني لو خطبها جنبي في ابانين (وهو على صيغة التثنية جيلان)
 لصرح وجهه بالدم . اى لاهانه غاية الاهانة .

ومن ذلك قصة عدى بن نصر الخمى . وكان جذيمة الابرش وياه
 مجله والقيام على رأسه . فعمشته اخته رقاش فقالت له اذا سقيت القوم
 فامزج لهم وعرق للملك (اى امزج له قليلاً كالعرق) فاذا اخذت الخمر
 منه فاخطبني اليه فانه يزوجك فاشهد القوم ان فعل . ففعل الغلام .
 وخطبها فزوجه واشهد عليه وانصرف اليها فمرفها الخبر فقالت عرس

بهاك . فلما أصبح غدا متضمخاً بالخلوق . فقال له جذيمة ما هذه الآثار
ياعدى ؟ قال آثار عرس . قال له جذيمة واى عرس ؟ قال عرس رقاش .
فخر واكب على الارض . ورفع عدى جراً ميزه فاسرع جذيمة
في طلبه فلم يجده وقيل بل قتله ، وبعث اليها :

حديثنى وانت لا تكذبنى ابجر زينت ام بهجين
ام بسبد فانت اهل لعبد ام بدون فانت اهل لدون
فاجابته رقاش :

انت زوجتى وما كنت ادري واتانى النساء للترزين
ذاك من شربك المدامة صرفاً وتماديك فى الصبا والمجون
فقلها جذيمة اليه وحضنها فى قصره . فاشتملت على حمل وولدت
غلاماً فسمته عمراً فملك بعد خاله . وهو الذى خطفه الجن وهو صاحب
مثل « شب عمره عن الطوق »

ودخل عقيل بن علقمة يوماً على عثمان بن حيان وهو امير المدينة فقال له عثمان
زوجنى بعض بناتك ؟ فقال « ابكرة من ابلى تعى ؟ » فقال له عثمان
« امجنون انت ؟ » قال عقيل اى شىء قلت لى ؟ قال عثمان قلت لك
زوجنى ابنتك ! قال ان كنت تريد بكرة من ابلى فنعيم . فامر به
فوجئت عنقه . فخرج وهو يقول :

لحى الله دهرأ ذدع المالكه وسود ابناء الاماء العوارك !
وعقيل هذا وان كان فى صدر الاسلام فاخلاقه لم تزل جاهلية .
وخطب اليه ابراهيم بن هشام القرشى وهو خال هشام بن عبد الملك
ورالى المدينة وكان ابيض شديد الياض فرده عقيل وقال :

رددت صحيفة القرشى لما ابتر اعراقه الاحرارأ
وبلغ بالعرب الرغبة عن غير الاكفاء وخوف العار الى تمنى
الموت لبناتهم . قال الهيثم ان الواؤد كان مستعملاً فى قبائل العرب

قاطبة وكان يستمله واحد ويتركه عشرة فجاء الاسلام وقد قل الا في تميم . وقيل كان الواد في تميم وقيس وبكر وهو ازن واسد . وكان من لا يرى الواد يتعنى لابنته الموت خوفاً من الفضيحة بعمده او من الوقوع في يد غير كفاء .

ومن ذلك قصة المثنى بن معروف الطائي فانه نزل برجل من فزارة يقال له ابو جبر فسمعه يقول والله اني وددت ان ابيت اللية خالياً بابنة عبد الملك بن مروان فقال له الطائي احلالاً ام حراماً؟ فقال ما بالي ؛ فوثب عليه المثنى فضرب رأسه برحالة ثم انتقل وهو يقول :

ابنخ امير المؤمنين رسالة على النأي اني قد وترت با جبر
كسرت على اليا فوخ منه رحالة لنصر امير المؤمنين وما يدري
على غير شيء غير اني سمعته بني بنساء المسلمين بلا مهر
ومن ذلك قصة عقيل بن علفة النبطاني فانه خطب عنده ابن اخيه ابنته وكان هيناً وله مال كثير فقال :

لعمري لئن زوجت من اجل ماله هيناً لقد حبت الى الدراهم
ابني ان اعطى الدناءة اني امد عناناً لم تخنن الشكائم
وكان لعقيل هذا جارجهي خطب اليه ابنته فغضب فاخذها وكتبه
ودهن استه بشحم اوزيت فادناه من قرية النمل فاكل خصيته حتى ورم جسده .

وقال اكثم بن صفي : يا بني تميم لا يغلبنكم جمال النساء على صراحة النسب . فان المناكح الكريمة مدرجة الشرف . وقال بكير الاسدي :

واول خبت المرء خبت تراه . واول لؤم المرء لؤم المناكح
ومن رغبتهم بيناتهم عن غير الاكفاء قصة يذكر بن عنزة بن اسد بن ربيعة . وهو احد القارظين الذين يضرب بهما المثل فيقال « حتى يؤوب القارظان . » اي حتى يكون مالا يكون . وملخص القصة : ان

رجلاً اسمه خزيمه بن فهد خطب إليه ابنته فلم يزوجها . ثم خرجا يطلبان القرظ (وهو ورق تدبغ به الجلود) وصرا بقلب فاستقيا فسقطت الدلو . فنزل يذكر ليخرجها . فلما صار في البرمنعه الحبل وقال زوجني فاطمة . فقال اما على هذه الحالة اقتصاراً فلا اقبل ولكن اخرجني حتى ازوجك . فادتبع وجعل يسأله فيأبى حتى هلك فيها . فهذا يدل على ان القوم كانوا في غاية اعزاز لبناتهم . لا كما قال المعترض من ابتداءهم لهن . والقارظ الثاني رجل من النمر بن قاسط . خرج يبغى قرظاً فابعد فنهشته حية فقتلته . ف ضرب الابل برجوعه فيما لا يكون .

واحتجاجه على قدم الفساد المذكور في العرب بقصة يا قوت الحموى ، وهي مسامرة اهل مرباط ومبادلتهم ، لا يخفى عدم ظهور وجهه لان اهل مرباط ليسوا من العرب في الاصل وانما نزل فيهم بعض متأخري العرب فبانقراض جيل بعد جيل سرت العادة في ذرارهم من اهل البلد .

واما حكاية ابن بطوطة التي شاهدها عند امير عمان فانها دليل على ان اهل عمان باقون على ائمة العرب . لان البنت التي ساق حكايتها لو استطاعت ان تبلغ غرضها في بيت ابيها ما احتمت بذلك الامير الظالم . يدل على ذلك قوله لا يقدر على قتلها لحماية الامير لها . وفيه دليل على ان الامير غير عربي الاصل لان العربي يغار على غير حرمه . يدل على ذلك قصة السليك بن السليكة فانه مر بامرأة في بيت وحدها فاغتصبها فلما علم بذلك رجل اسمه انس تبعه فقتله و ابى ان يعطى دينه فقال في ذلك :

انى وقتلى سليكاً ثم اعقله كالثور يضرب لماعافت البقر
غضبت للمرء اذ نيكت حليلته وا ذيشد على وجعائها الثمر
قوله ثم اعقله بالنصب على تقدير ان المصدرية عطفاً على وقتلى .
ولماعافت البقرى لما كرهت البقر شرب الماء . والمعنى ان البقر اذا امتنعت من شروعه في الماء لا تضرب لانها ذات لبن . وانما يضرب

الثور لتفزع هي فتشرب . يقول ان قتل سليك كان بحق فالعقل يكون ظلاماً كضرب الثور عند امتناع البقر .

قال المعترض « ان العرب كانوا يستبضعون لبناتهم باقل شئ . » وهذا غير صحيح لان من مشهور كلام العرب « ومن خطب الحساء لم يغل المهر . » ولم تزل العرب تشتط في المهر وتغالي حتى جاء الاسلام فامر بالتخفيف . اما اهل الامصار فامثلوا . واما اهل البادية الذين لم يتمكنوا من خلع العوائد كلها فلم يفعلوا لان الامر كان على طريق الندب . يشهد لذلك قصة عروة بن حزام المذري فانه خطب بنت عمه عقراً فاشتط عليه عمه في المهر فقال عروة :

« يكلفني عمي ثمانين ناقة ومالي والرحمن غير ثمان »

وقال عمرو بن ابي علقمة المري :

انى وان حب الى المهر الف وعبدان وذود عشر
احب اصهارى الى القبر

ولما زوج النعمان بن بشير الانصارى يحيى بن ابي حفصه ابته على عشرين الف درهم قال قائل يعيره :

لعمري لقد جللت نفسك خزية وخالفت فعل الاكثرين الاكارم
ولو كان جدك اللذان تابعا بيدر لما راما صنيع الالاثم

وقال ابو اسحاق بن خلف :

لولا اميمة لم اجزع من العدم ولم اجب في القيا في حندس الظلم
تهوى حياتي واهوى موتها شغفاً والموت اكرم نزال على الحرم .

وقال ابن المعتز :

وبكر قلت موتى قبل بلع وان اثرى وعد من الصميم
امزج باللثام دمي ولحمي فاعذرى الى النسب الكريم
وموتى امر مؤنث من الموت

ومن ذلك قصة ابن ملجم قاتل علي بن ابي طالب: فانه خطب امرأة من الحوارج فقالت لا اقنع منك الا بصداق اسميه لك: وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وامة وان تقتل عليا. فقال لها « لك ما سألت » وقال في ذلك:

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المصمم
فلا مهر اغلى من علي وان علا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم
وقال جرير يعير الفرزدق بمهر اخته جعثن ويفخر عليه بكثرة
مهر نساء قومه:

هلا طلبت بمقر جعثن منقراً ومجرها وتركت ذكر الابلق
سبعون والوصفاء مهر بناتنا اذ مهر جعثن مثل حزر البندق
المقردية بضع المرأة اذا غضبت على نفسها. وجعثن بكسر الجيم
والثاء اسم اخت الفرزدق. ومنقر بكسر الميم وفتح القاف اراد به
اولاد الاشد المنقرى. وكان عمران بن مرة المنقرى اسر جعثن يوم
السيدان. ومجرها اي جرهم اياها. وقد اعترف جرير بانه افترى
عليها في قذفه هذا. والابلق زوج بنت جرير. والحزر التقدير. والبندق
الذي يرمى به. كفى بذلك عن القبيح.

وقال رجل في امرأة زوجت من غير كفوء:

لقد فرح الواشون ان نال ثعلب شبيها ظبي مقتلها وجيدها
اضر بها فقد الولي فاصبحت بكف لثيم الوالدين يقودها.
وتقاخر العرب في الجاهلية بانسابهم معلوم. ولا يرضى كريم
الطرفين منهم بموازاته بمن ليس كذلك.

حكى ان قتيبة بن مسلم الباهلي مازح اعرايياً فقال ايسرك ان
تكون باهلياً؟ فقال لا والله! قال فتكون باهلياً خليفة؟ قال لا والله،
ولو اني ماطلعت عليه الشمس. قال ايسرك ان تكون باهلياً وتكون
في الجنة؟ فاطرق ثم قال بشرط ان لا يعلم اهل الجنة اني باهلي.

وقال اعرابي :

سل الله ذا المن من فضله ولا تسألن ابائله
فما سال الله عبد له فخاب ولو كان من باهله .

وحج ابو جزء ومعه قوم من خاصته فجلسوا في المسجد الحرام الى قوم من بني الحارث بن كعب . فرأى بنو سعد اعظام قوم ابى جزء اياه فقال قائل منهم امن بيت الخليفة انت؟ قال لا ولكن رجل من العرب . قال ممن الرجل؟ قال رجل من مضر . قال اعرض ثوب الملبس! من ايها عافاك الله؟ قال رجل من قيس . قال اين يراد بك . صرالى فصيلتك التي تؤويك! قال رجل من بنى سعد بن قيس . قال اللهم غفراً! من ايها عافاك الله؟ قال رجل من بنى يعمر . قال من ايها؟ قال رجل من باهله . قال قم عنا! فاقبل بعض اصحابه الى الحارثي فقال اتعرف هذا؟ قال ذكرا نه باهلي . فقال هذا امير ابن امير حتى عدد خمسة وسماههم كلهم . فقال الحارث الامير اعظم ام الخليفة؟ فقال بل الخليفة . قال افالخليفة اعظم ام النبي؟ قال بل النبي . قال « والله لو عددت له في النبوة اضعاف ما عددت له في الامارة ثم كان باهلياً ما كان الله ليعابه شيئاً! » فكادت تقس ابى جزء مخرج . فقال صاحبه انهض بنا فان هولاء اسوأ الناس آداباً .

وكانوا اذا شرف احدهم بنفسه سموه عصامياً واذا شرف بآبائه سموه عظامياً . وفي المثل « كن عصامياً ولا تكن عظامياً » اى افتخر بنفسك لا بعظام آباءك البالية . وعصام هذا هو عصام بن شهر الباهلي حاجب النعمان . ومن شعره :

تس عصام سودت عصاماً وعلمته العكر والاقديما
وجملته ملكاً هماماً .

ويقال له عصام الحجازي . وانما سمته العرب خارجياً لانه خرج
من غير اولية كانت له .

ويحكى ان الحجاج ذكر عنده رجل بالجهل فاراد اختباره فقال
اعصامي ام عظامي ؟ اراد « اشرفت بنفسك ام بابائك الذين صاروا
عظاماً باليه؟ » فقال الرجل اناعصامي وعظامي . فقال الحجاج هذا
افضل الناس . فقضى حوائجه ومكث عنده ثم فشه فوجده اجهل
الناس . فقال لتصدقني اولاً قتلتك . كيف اجبتني بما اجبتني حين سألتك
عما سألتك ؟ قال لم اعلم اعصامي خير ام عظامي فخشيت ان اقول احد نعم
فقلت كليهما . فان ضربني احدهما تفنى الآخر فقال الحجاج عند ذلك
« المقادير تصير اليه خطيباً . »

وارولاد الجوارى انقص عندهم من اولاد الحرائر . قال الشاعر

ان اولاد السراي ككثرت يارب فينا

رب ادخلى بلاداً لارى فيها هجيناً

وكتب محمد بن عبدالله بن حسن الى المنصور الخليفة العباسي في مكتوب
بعث به اليه واعلم اني لست من اولاد الطلقاء ولا اولاد اللعناء ولا
اعرقت في الاماء ولا حضنتي امهات الاولاد .

ومع ما هم مشهورون به من الفخر بالانساب كان الرجل لا يشرف
عندهم ولا يكمل الا اذا ضم الى نسه شرف نفسه .

قال عامر بن الطفيل :

واني وان كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب

فاسودتني عامر عن وراثته ابى الله ان اسمو بام ولا اب

وقال الآخر في مثل هذا :
وما ينفع الاصل من هاشم اذا كانت النفس من باهلة
وقال الآخر يهجو شقيقه :
ابرك ابي وانت اخي ولكن تفاضت الطبائع والظروف
وامك حين تنسب ام صدق ولكن ابناها طبع سخي
وقد اجاد المتبي
وآف من اخي لابي وامى اذا ما لم اجده من الكرام
ارى الاجداد تغلبها جميعا على الاولاد اخلاق اللثام
ولست بقانع من كل فضل بان اعزى الى جد همام
وقال عترة بن شداد العيسى ، وكان بنو عيسى انهم مواقتبت وقاتل
دون النساء فرد العدو وقال قيس بن زهير ما حى النساء الا ابن السوداء
انى امرؤ من خير عيس منصبا شطرى واحمى ساثرى بالمنصل
واذا الكتيبة احجمت وتلاحقت الفيت خيرا من معم مخول
فاقر على نفسه بانه ناقص النصف وجمل شجاعته تحمى نصفه الباقي .
ومن افتخارهم بالآباء دون الامهات قول عبدالله بن عبدالمطلب
والد النبي صلى الله عليه وسلم :
لقد علم السارون في كل بلدة بان لنا فضلا على سادة الارض
وان ابي ذوالمجد والسود الذي يشار له ما بين نشر الى خفض
وجدى وآباء له اثلوا العلى قديماً بطيب العرق والنسب المحض
فانه رضى الله عنه مع شرف اخواله لم يذكروهم .
ومن ذلك قول القائل :
اذا مات منهم ميت سرق ابنه ومن عضة ما يبتن شكرها
يريد ان الابن منهم يشبه اياه . فن رأى هذا ظنه هذا فكان
الابن مسروق . ولم يقل انه يشبه خاله او ابا امه .
ومن كلامهم من يمن الولد ان يشبه اياه .

وربما افتخروا بالامهات لاجل معنى خفي . من ذلك قول لبيد بن ربيعة العامري صاحب المعلقة :

« نحن بنو ام البنين الاربعه ونحن خير عامر بن صعصعه »
 « المظمون الجفنة المدعده والضاربون الهام تحت الخيضة »
 « مهلايت اللعن لا تأكل معه ان استه من برص ملمعه »

والنكته في اتساب لبيد الى ام البنين واسمها ليلى التنيه على انهم اشقاء .

وبنو ام البنين خمسة لاربعة . وهم : (١) عامر بن مالك ملاعب الاسنة (٢) وطئيل بن مالك فارس قرزل . وهو ابو عامر المشهور وقرزل فرسه ، (٣) وربيعة بن مالك وهو ابو لبيد . وهو ربيع المقترين ، (٤) ومعاوية بن مالك معود الحكماء . (٥) وعبيدة الواضح .
 واما قال الاربعة لان اياه وهو احد الخمسة كان قد مات قبل ذلك .
 وقيل انما قال ذلك لاجل القوافي . فيقال لا يجوز لشاعر ان يلحن للقوافي فكيف ان يكذب .

حل غريب الايات : الجفنة القصعة الكبيرة ومنه قوله تعالى « وجنان كالجوابي » وهي مخصوصة باوعية الطعام . والمدعدة المملوءة . والخيضة ، بخفاء وضاد منقوطين بينهما ياء ساكنة زائدة ، اصوات وقع السيوف ، والبيضة على الرأس ، والغبار .

زعم المتعامل المذكور ان النساء في الجاهلية اعز من الرجال . ويرد ذلك ما تقدم . ولو كن اعز من الرجال لم تكن الضرائر موجودة في الجاهلية مع ان بعض اشراف العرب كانوا يجمعون تسعاً وعشراً . والبغض بين الضرائر معروف قديماً وحديثاً . قالت بنت مرة بن عاهان بن الحصين لما قتلتها باهلة :

انا وياهلة بن اعصر بيننا داء الضرائر بغضة وتقاف
 من تقفن منهم فليس بأبأب ابدأ وقتل بني قتيبة شاف
 ذهب قتيبة في اللقاء بفارس لاطاش رخش ولا وقاف

بأهالة قبيلة سموا بأهمهم . وهم تسعة ابوههم مالك بن اعصر . وليست
بأهالة اما انبير اثنين منهم . وانما حضنت الجميع فنالت عليهم . والضرائر
جمع ضرة ، وهذا الجمع نادر لا يكاد يوجد له نظير الا مثل حرائر
في جمع حرة وكنائن في كنة . وداء الضرائر هو التباغض والتضارب .
وهو معروف . فيكون قولها بغضة وتغاف تفسيراً للداء . والتغاف تفاعل من
قفيه اقفيه قفياً اذا ضرب قفاه . وروى تغاف بكسر النون في اوله . وهو
مصدر ناغفه والمنافقة المضاربة بالسيف على الرأس وعلى هذا يكون
بغضة بالجر بدلاً من الضرائر . من تثقن صيغة المتكلم مع الغير . يقال
ثقت الرجل في الحرب ادر كته . تقول من نظره من بأهالة تقتله
ولا ندعه يرجع الى اهله .

قال حنيفة الطهوي .

لقد خشيت ان يقوم قابري ولم تمارسك من الضرائر
ذات شذاة جمة الصراصر حتى اذا جرس كل طائر
قامت تعظي بك سمع الحاضر تصر اصرار العقاب الكاسر
يعنى بذلك امراته يقول لقد خشيت ان ادفن ولم اتزوج امرأة
تكون لك ضرة . والشذاة الحدة والحصومة . والصراصر جمع صرصرة
وهي الصوت الدقيق . يريد كثرة كلامها شدة خصومتها . واراد بقوله
حتى اذا جرس كل طائر ابتداء النهار وانتشار الضوء . وفي ذلك الوقت
تسرح الطير لطلب ارزاقها . يريد انها تباكرها بالسباب . والحاضر جماعة
الناس . تعظي بك اي تسمعها وتذكرها بالحثي ليعلم الحثي .

وقال حميد بن ثور :

واقسم لولا ان حذباً تبايعت على ولم ابرح بدين مطردا
لزاحمت مكسالا كان ثابها تحن غزالا بالحملة اغيدا
اذا انت باكرت المنيئة باكرت مداكها من زعفران واثمدا

يخاطب زوجته يقول فاقسم لولا ان حدياً (وهي السنون المجذبة
واحدتها حدياء) تبايت وتوالى علي ولولا انه استدان وطالبه الغرماء
وطردوه لزاومت مكسالا اي لتزوجت عليك امرأة ثقيلة الارداق
الناعمة الجسم تكون احسن منك . كان ثبا بها تجن اي تسترغز الا يريدان
بديها حسن . والحماية قطعة من الرمل فيها شجر . والاغيد الممتي .
ثم قال اذا انت با كرت المنبثة اي دباغ الجلود با كرت هي الطيب
والاكتحال . والمدالك الحجر الذي يسحق عليه الطيب . ولو علم حميد شياً
اغيظ لها من الضرة لهددها به .

واذا ثبت وجود الضرائر وكثرتها في عرب الجاهلية ثبت ان
النساء لم يكن اعز من الرجال ولا كن يحكمن عليهم .
اما قوله ان الجيران كانوا يشتركون في نسايم فهذا مردود عليه
فان العرب كانت تتدمم مما هو اقل من هذا . يدل على ذلك قول قيس
بن الخطيم وهو جاهلي :

ومثلك قد اصيبت ليست بكنة ولا جارة افضت الى حياءها
وقول مسافر بن ابي عمرو القرشي ، وكان سافراً الى النعمان ليعينه بمال
يتزوج به هند بنت عتبة فبلغه ان اباسفيان وهو ابن عمه تزوجها بعده فقال:
الا ان هنداً اصيبت منك محرماً واصبحت من ادنى حوتها حما
فانه رآها صارت محرماً له ولو كان الامر كما ذكره المتحامل لفرح .
وقال عنترة العبي :

اغشى فتاة الحى عند حليها واذا غزا في الجيش لا اغشاها
واغض طرفي ما بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
فانه كان يزور فتاة الحى عند حليها حيث لا تمكن التهمة . واذا غاب
زوج الفتاة وامكنت التهمة ترك الزيارة . وكان يفض النظر عن جارته
لان النظر الى الجارة عندهم ليس من رعاية حقها .

وقول اعشى باهامة يرثي المنتشر بن وهب :
 لا يهتك السر عن انثى يطالها ولا يشد الى جارتها النظر
 وهذا منتهى الزلان اهتضام الجار عند العرب دليل على ذل المجير .
 ولم تزل نساء العرب تاف من ذلك . ومنه قصة امرأة مرت على
 سفهاء من بني نعيم في صدر الاسلام . فنظروا اليها وقالوا كلمة مخجل
 بالادب فقالت يا بني نعيم ما امثلتم قول الله تعالى « قل للمؤمنين
 يغضوا من ابصارهم . » (سورة النور - ٣٠) ولا امثلتم قول جرير :
 « فغض الطرف انك من نعيم فلا كعباً بلفت ولا كلاباً »
 وقالت الحنساء في وصف اخيها صخر :
 لم تره جارة يمشى بساحتها لريبة حين يخلى بيته الجار
 وقالت ايضاً .

ولا يقوم الى ابن الم بشته ولا يدب الى الجارات مخويدا
 ومما رمى به صاحب الكتاب المذكور العرب ان نساء هم كن
 مشتركاً فيهن وانهن كن المعتمد .
 وهذا غلط منه او مغالطة اذ لا يجدعربياً يمدح آخر الا شبهه بآبائه
 دون امهاته . وكانوا اكثر ما يذكرون الامهات عند الهجاء لان
 الطعن فيهن يمض الشخص اكثر من الطعن في ابيه . واكثر ما يفتخرون
 به الآباء والاجداد . نعم كان الاكل عندهم كرم الابوين وكانوا يسمون
 الموصوف به طرفاً (بكسر الطاء) فان كان ابوه شريفاً واهه ليست
 كذلك سموه هيناً وان كان بالعكس سموه مقرفاً (اسم فاعل من
 باب الافعال) وسموه ايضاً مذرعاً .

قال الشاعر :

اذا باهلي تحته حنظلية له ولد منهما فذاك المذرع
 باهلة قبيلة من قيس عيلان . اکتسبت الدناءة بافعالها لامن جهة
 النسب . وبنو حنظلة اكرم قبيلة في تميم . والمذرع (بالذال والعين

المهولة . اسم مفعول من باب التفعيل .) هو الذي امه اشرف من ابيه . قال ابن هشام سمي مدرعاً للرفتين في ذراع البغل وانما صادتا فيه من قبل الحمار .

وكان الهجين عند العرب دون الصريح الا اذا برع في الكرم والشجاعة فانه يوازيه . قال خفاف بن ندبة :

كلانا يسوده قومه على ذلك النسب المظلم

يعني انه هو والباس بن مرداس سودهما قومهما مع انهما ابنا جارييتين . قال المعترض « ان العرب اخس من الكلاب . » ومعلوم ان الحساسة الدناءة . ولنا ان نقول ان العرب اشرف الامم بالاجماع لان خصال الحمد مجتمعة فيهم :

افضل الحامد عزة النفس . وللعرب فيها ما ليس لغيرهم . يشهد لذلك ما ثور اخبارهم . انظر الى قصة حذيفة بن بدر واخيه يوم الهباءة (يوم من ايام الجاهلية) وكانا اغارا على بنى عبس فاستنقعا في الغدير فلم ينجياهما غير قيس بن زهير عدوهم الالاد . فقال احدهما قولاً يعلم منه الخضوع فضربه الآخر وقال دع عنك ما ثور القول اى اجتنب قولاً يؤثر عنك ويكون عادا وعبياً على عقبك .

ومنها قصة قيس بن زهير . فانه بعد انقضاء حرب داحس والغبراء خرج هو وصاحب له من بني اسد عليهما المسوح يسبحان في الارض ويتقوتان مما تبت ، الى ان دفنا في ليلة باردة الى اخية لقوم وقد اشدت بهما الجوع ، فوجدا رائحة شواء فسميا يريدانه فلما قاربا ادركت قيسا شهامة النفس والانشة فرجع وقال لصاحبه دونك وما تريد فانلى لبساً على هذه الاجارع اتربق داهية القرون الماضية (يعني الهلاك) . ففضى صاحبه ورجع من الغد فوجده قد لجأ الى شجرة باسفل واد فنال من ورقها شيئاً ثم مات .

ومن ذلك قصة الحارث بن ظالم فإنه وفد على الملك فوجد عنده خالد بن جعفر بن كلاب فميره خالد في مجلس الملك بمافصل بقومه وكان خالد وحارث يأكلان التمر فجعل التمر يتساقط من يد حارث بمحضر الملك . ثم ان حارثاً فتك به في جوار الملك فاغار الملك على جارات للحارث فاغتال الحارث ابنه واستنقذ جاراته مع ما لهن .

ومن افضلها الكرم . وللعرب فيه ما ليس لغيرهم . هم اقرى الناس للضيف . يقر بذلك لهم كل من يعرفهم . كانوا يوقدون النار للضيف ليهتدى بها . على اليقاع (بالفتح وهو الموضع العالي) لتكون اشهر . وربما اوقدوها بالمندى الرطب (وهو عطر ينسب الى مندل . بلد من بلاد الهند) ونحوه مما يتبخر به ليهتدى اليها العميان . وقريش اصل ذلك . فالول من اوقد النار بالمزدلفة ، حتى يراها من دفع من عرفة ، قصى بن كلاب . وسمى هاشم هاشماً لانه كان يحشم الثريد للحاج . وكان عبدالله بن جدعان القرشي التيمي ينصب موائده بالابطح يأكل منها الناس . وفيه يقول امية بن ابي الصلت :

له داع بمكة مشمئل و آخر فوق دارته ينادى
الى رده من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد
شمئل صر تفع . و رده جمع رداح جفنة عظيمة . والشيزى خشب اسود تتخذ منه الجفان .

ومن قريش ايضاً ازواد الركب . وهم مسافر بن ابي عمرو بن امية ، وزمعة بن الاسود بن المطلب بن عبدالعزيز والمغيرة بن عبدالله ابن عمر بن مخزوم . وانما قيل لهم ازواد الركب لانهم كانوا اذا سافروا لم يتزود معهم احد .

وكان حاتم اذا اشتد البرد و كلب الشتاء امر غلامه فاوقد ناراً في يساع من الارض لينظر اليها من اضل الطريق ليلاً ليهتدى اليها . وكان يقول عند ذلك :

او قد فان الليل ليل قر والريبع ياموقد ربيع صر
 عل يرى نارك من يبر ان جلبت ضيفاً فانت حمر
 وكان ذوالاعواد وهو جد اكشم بن صيفي من بني اسيد بن عمرو
 ابن تميم معمرآ . وكان من اعز اهل زمانه . فاتخذت له قبة على سرير فلم
 يكن خائف يأتها الا امن ، ولا ذليل الاعز ، ولا جاسع الاشيع ؛ واياه
 يعني الاسود بن يعفر بقوله :

ولقد علمت سوي الذي نبأتني ان السيل سيل ذي الاعواد .
 ومن ذلك قصة كعب بن مامة الايادي . فانه آثر رفيقه بنصيب
 من الماء ومات هو عطشا .

ومن ذلك رجل من طيبي حدث عنه رجل من الاعراب . قال نزلت
 برجل من طيبي فحمرلى ناقة فاكلت منها فلما كان الغد نحر اخرى . فقلت
 ان عندك من اللحم ما يعني ويكفي . فقال اني والله لا اطعم ضيفي الا لحمأ
 عيطا . قال وفعل ذلك في اليوم الثالث . وفي كل ذلك آكل شياً ويأكل
 الطائي اكل جماعة . ثم نوتى باللبن فاشرب شياً ويشرب عامة الوط .
 فلما كان اليوم الثالث ارتقت غفلة فاضطجع فلما امتلا نوماً استقت
 قطعاً من ابله فاقبلته الفج . فاتبه واختصر على الطريق حتى وقف لي
 في مضيق منه فالتهم وتره فوق سهمه ثم نادى بي « لتطب نفسك عنها ! »
 قلت ادري آية فقال انظر الى ذلك الضب فاني واضع سهمي في مغرز
 ذنبه . فرماه فانذر ذنبه . فقلت زدني . فقال انظر الى اعلى فقارده .
 فرماه فاثبت سهمه في الموضع . ثم قال : « الثالثة والله في كبدك ! »
 فقلت شأنك بابلك . فقال « كلا ، حتى تسوقها الى حيث كانت . »
 قال فلما انتهت بها قال « فكرت فيك فلم اجدلى عندك ترة تطالني بها .
 وما احسب الذي حملك على اخذ ابلي الا الحاجة . » قال قلت هو والله
 ذاك . قال « فاعمد الى عشرين من خيارها فخذها . » فقلت اذا والله
 لا افعل حتى تسمع مدحك : « والله ما رأيت رجلاً اكرم ضيفاً ،

ولا اهدي سبيلاً ، ولا ارمى كفاً ولا اوسم صدرا ولا اارغب جوفاً
ولا اكرم غفواً منك . » قال فاستجيا فصرف وجهه عنى ثم قال انصرف
بالقطع مباركاً لك فيه .

وهذا باب انفردت به العرب . حتى ان من اشهرت عندهم باللؤم
لا يقاربه فيه كريم غيرهم . فن ذلك ان امرأة مر بها رجل فقال « هل
من رسل يباع ؟ » فقالت له « انك للثيم او من قوم ثام ! وهل يبيع
الرسد كريم ؟ ! »

وكان احبته بن الجلاح مشهورا عند العرب باللؤم . ولما سرتبع
الحميري ، وهو ابو كرب آخر التبابعة ملوك حمير ، بالمدينة خلف
ابنه بها ومضى حتى قدم العراق فقتل ابنه بالمدينة غيلة فحاصرا حبة
في اطمه واسمه الضحيان ثلاثة ايام فكان يقاتلهم في النهار يرميهم بالنبل
والحجارة ويرمى اليهم في الليل بالتمر . فقال تبع اصحابه بستنا الى رجل
يقاتلنا بالنهار ويضيفنا في الليل

ومن اخس العرب باهلة . ومنهم المنتشر المشهور وكان ينعر
الكوم للاضياف . وفيه يقول الاعشى :

لا تنكر البازل الكوماء ضربته بالشر في اذا ما اجلوز السفر
وتفرغ الشول منه حين تبصره حتى تقطع في اعناقها الجر
والجرة ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه . واقطع الجر
اذا رات السيف يكون فزعا من العتر .

ومن الحصال الحميدة الغفو عند القدرة . وللعرب في ذلك ما ليس
لغيرهم . فن ذلك قصة دريد بن الصمة مع ربيعة بن مكدم . فان الاول
خرج في كتيبة فراى الثاني يقود بطعينة فبعث اليه احداصحابه وقال له
اقتله واآتني بالطعينة . فقتله ربيعة فبعث آخر فقتله حتى قتل الثالث
فخرج اليه بنفسه . فوجده قد انكسر رمحه وبقى اعزل فقال له ايها

الفارس ان مثلك لا يقتل واني لا اري معك رجلاً . فخذ رجلي واني مشط
 عنك القوم . فقال لهم قتل اصحابكم واتزع رجلي فلا مطمع لكم فيه وقال :
 ما ان رأيت ولا سمعت بمثله حامي الضمينة فارساً لم يقتل
 ياليت شعري من ابوه وامه يا صاح من يك مثله لا يجهل .
 ومنها الوفاء بالعهده . ولم يتصف بذلك غير العرب في القديم .
 حتى انهم كانوا اذا غدر منهم احد رفضوا له لواء بسوق عكاظ
 ليعرفوه الناس فيفتضح . وفي ذلك يقول الحادرة :

أَسْمَى وَيَحْكُ هَلْ سَمِعْتَ بِنْدَرَةَ رَفَعَ اللِّوَاءَ لَنَا بِهَا فِي مَجْمَعٍ
 وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ الْحَارِثِ بْنِ عَبَادٍ : فَانْهَ اعْتَزَلَ حَرْبَ الْبُيُوتِ
 وَقَالَ لَا نَاقَةَ لِي فِيهَا وَلَا جَهْلَ . وَبَعَثَ ابْنَهُ بِجَيْرٍ إِلَى مَهْلَهْلِ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ
 فَقَتَلَهُ فَقَالَ الْحَارِثُ لِمَا بَلَغَهُ الْخَبْرَ نَعَمْ الْقَتِيلُ قَتِيلُ أَصْلَحَ بَيْنَ ابْنِي وَأَيْلِ .
 فَقَبِلَ لَهُ أَنْ مَهْلَهْلًا لِمَا قَتَلَهُ قَالَ لَهُ « بَوْءَ بِشَسْحِ نَهْلِ كَلَيْبِ ! » (يُقَالُ أَبَاتُ
 فَلَانَا بَضْلَانُ فَبَاءَ بِهِ إِذَا قَتَلْتَهُ بِهِ . وَهَذَا لَا يَكَادُ يَسْتَمَعِلُ إِلَّا الْوَالِدَانِ كَفُو
 لِأُولَى فَكَانَ مَهْلَهْلًا جَعَلَ بِجَيْرٍ كَفُوًّا لِشَسْحِ نَهْلِ كَلَيْبِ .) فَانْضَمَّ
 الْحَارِثُ إِلَى قَوْمِهِ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ قِضَةِ (وَيُسَمَّى يَوْمَ التَّحْلَاقِ . يَوْمَ لَبْنِي
 بِكَرِ عَلِيِّ بْنِ تَغْلِبِ) اسْرَهْ مَهْلَهْلًا وَاسْمُهُ عَدِيُّ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ فَقَالَ لَهُ دَأْنِي
 عَلَى عَدِيِّ وَاخْلِي عَنكَ فَقَالَ مَهْلَهْلٌ عَلَيْكَ الْعَهْدُ بِذَلِكَ أَنْ دَلَلْتِكَ عَلَيْهِ ؟ قَالَ
 نَعَمْ . قَالَ أَنَا عَدِيُّ . فَجَزَّ الْحَارِثُ نَاصِيَتَهُ وَتَرَكَهُ . وَقَالَ فِيهِ :

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيِّ وَلَمْ أَعْرِفْ عَدِيًّا إِذْ امْكَنَّتِي الْيَدَانُ .
 وَمِنْهَا حِفْظُ الْجَارِ . وَاللَّعْرَبُ فِي ذَلِكَ مَا لَيْسَ لغيرِهِمْ . فَكَانَ ذَلِكَ قِصَّةَ
 رَجُلٍ مِنْ بَنِي أَبِي بَكْرِ بْنِ كَلَابٍ : فَانْ عَمِيرُ بْنُ سَلْمَى اجَارَهُ وَكَانَ لِلْكَلابِيِّ
 أَخٌ جَمِيلٌ . فَقَالَ لَهُ الْقَرِينُ أَخُو عَمِيرٍ « لَا تَرُدَّنِي بِأَخِيكَ هَذَا أَيَاتَنَا ! »
 فَرَأَاهُ بَعْدَ بَيْنِ أَيَاتِهِمْ فَقَتَلَهُ وَقِيلَ وَجَدَهُ يُتَحَدَّثُ مَعَ امْرَأَتِهِ . وَكَانَ عَمِيرُ
 غَائِبًا فَاتَى الْكَلابِيَّ قَبْرَ سَلْمَى أَبِي عَمِيرٍ وَقَرِينِ فَاسْتَجَارَ بِهِ وَقَالَ :

وإذا استجرت من اليمامة فاستجر زيد بن يربوع وآل مجمع
 وآيت سلمياً فعدت بقبره واخو الزمانة عائد بالامع
 اقرين انك لورأيت فوارسى بعمائين الى جوانب ضلع
 حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن للغدر خائنة مغل الاصع
 فلجأ قرين الى قتادة بن مسleme الحنفي . فحمل قتادة للكلابي ديات
 مضاعفة . فابى . وقد لجأ قرين الى خاله السمين بن عبدالله فلم يمنع عميراً
 منه فاخذ عمير ومضى به حتى قطع الوادى فربطه الى نخلة وقال للكلابي
 اما اذا ابيت الاقتله فاهمل حتى اقطع الوادى وارتحل عن جوارى فلا
 خير لك فيه . فقتله الكلابي ففى ذلك يقول عمير :
 قتلنا اخانا للوفاء بجارنا وكان ابونا قد تجبر مقابره
 ومن ذلك قصة جساس فانه قتل كليباً الذى يضرب المثل بعزه
 بسبب قتله لناقاة جارته .

ومن وقائهم قصة حاجب بن زرارة : فان العرب اجدبوا بسبب
 قول النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم اشدد وطأتك على مضر . وابعث
 عليهم سنين كسنى يوسف . » تواتت عليهم الجدوبة سبع سنين . فقدم
 حاجب على كسرى وشكا اليه ما حل بقومه وطلب منه ان ياذن له فيكونوا
 فى حد بلاده . فقال كسرى « اتم معشر العرب غدر فاذا اذنت لهم
 عاثوا فى الرعية واغاروا . » قال حاجب انى ضامن للملك ان لا يفعلوا .
 قال « فن لى بان تفى انت ! » قال « ارهنتك قوسى » فلما جاء بها
 ضحك من حوله فقال الملك ما كان ليسلمها . اقتضوها منه ثم انه مات
 فوفى ابنه بضمان ابيه .

ومن ذلك قصة سيار بن عمرو الفزارى : فانه احتمل للاسود بن
 المنذر دية ابنه الذى قتله الحارث بن ظالم الف ببيروهي دية الملوك .

ورهنه بها قوسه فقام منها بثمانمائة . ثم مات . فرهن سيارا خو الحارث ابن ظالم لأمه قوسه بالمائتين الباقيتين فوفى بهما .

ومن ذلك قصة ابي دواد الايادي : فانه جاور الحارث بن همام الشيباني فخرج صبيان الحى يلعبون في غدير فغمسوا ابن ابي دواد فقتلوه . فقال الحارث بن همام لا يبقى في الحى صبي الا غرق في الغدير فودى ابن ابي دواد تسع ديات او عشرأ وحلف ان لا يذهب له شى الا خلقه له . وبه يضرب المثل في حفظ الجار . وهو الذى شبه قيس بن زهير بمدوحه به في قوله :

اطوف ما اطوف ثم آوى الى جار كجار ابي دواد .
قال المتحامل ان الفقهاء اجمعوا على ان من تزوج وهو ينوى الطلاق فنكاحه صحيح . قال ولا فرق بين هذا وبين الزنا . وهذا من افسد الاعتراضات وادلها على قصر باع الرجل وقلة بضاعته فان قول اهل الفقه « من تزوج وهو ينوى الطلاق فنكاحه صحيح . » معناه ان عقد النكاح الموضوع في الشرع على التأيد ينعقد انعقاداً مؤبداً . ونية التوقيت بمدة او بطلاق لغو لا يعتبر . قال اهل الفقه النية المؤكدة لمعنى اللفظ والنية المفسرة له معتبرة . واختلفوا في النية المخصصة فقال البعض انها معتبرة فيخص بها العموم وقال البعض لا تعتبر فلا سبيل الى تخصيص العموم بها . وجه الخلاف ان التخصيص هل هو بيان ؟ او هو تغيير ؟ واتفق اهل الفقه كافة قاطبة على ان النية المغيرة لمعنى اللفظ لا تعتبر البته . فاذا كانت النية المغيرة لمعنى اللفظ غير معتبرة بالاتفاق فكيف يمكن اعتبار النية المغيرة لحكم الشارع . فان الشارع انما شرع النكاح لمصالح اجتماعية لا تنتظم ولا تستقيم الاعلى تقدير تأيد العقد . فان عقده عاقد ونوى توقيته بمدة او تحديده بطلاق فان نيته مردودة عليه رغما لانه لان العبد في تصرفاته على خلاف حكم الشارع او على خلاف المصالح مجور عليه . وليس الحجر في ذلك من باب تحديد حرية الانسان

ولا من قبيل تحجير الواسع بل من باب رحمة الشارع للإنسان لظلمة له وشفقة منه إليه من أن يقع فيما يعود بضرر عليه .

ثم لا التباس ولا اشتباه بين تزوج من ينوي الطلاق وبين الزنا لأن الطلاق مشروع . والعلة وهي اختلاط النسب منتفية : فإنه إن بدا للذي قد كان نوى الطلاق عدم ارتكابه فالامر ظاهر ، وإن طلق فإن الشرع ألزم المرأة العدة وبتقضائها على الوجه المشروع يرتفع المحذور . ونكاح المتعة أيضاً فمما سلف قد كان مبنياً على العدة . فترى أن الإسلام حتى حماه بحدود تمنع أن يقع فيه معتد ويمتنع بها ما يرمى إليه هذا المعترض .

ثم إن مثل هذه المسائل الفقهية مسائل علمية دقيقة لا تعيب هذا المتحامل إن جهلها أو غابت عنه وله تحامل أشنع من هذا يدل على أن الرجل خليع العذار نزر الحياء سيئ الأدب حيث يسمى الشهداء بالتعساء ويظهر منه أن الرجل لم يكن له غرض إلا أن يظن في الدين . لكن الشهداء رأوا ما لم يره هو وعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يعلمه هو . ولو اردنا أن نعترض عليه كما اعترض هو علينا لا يمكننا . لكن نحن لا نريد أن نسيئ الوفاً لأذناب لهم فيما فعل . ولنا أسوة فيما قال الله تعالى في سورة آل عمران (١٨٦)

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور . »

أما أذى المشركين فقد انقطع . وأما أذى الذين أوتوا الكتاب فلا يزال يتدرج إلى ما شاء الله .

قال المعترض : « إن العرب يستحيل معرفة الشخص منهم لا يبه وإن الأنساب المعلومة عندهم وضعها ابن الكلابي . »

وهذا محض افتراء على العرب لان الانساب محفوظة عن من هو اقدم
 من ابن الكلبي واصدق منه . ثم ان ابن الكلبي وان كان طعن عليه
 في بعض ما نقل فان ذلك لم يتطرق الى كله .
 والانساب محفوظة عند العرب يشهدله شواهد : فن ذلك حديث
 ابي زرارة : قال خرج يزيد بن شيبان بن علقمة حاجا فرأى حين شارف
 البلد شيخا يحفه ركب على ابل عتاق برحال ميس ملبسة ادمآ قال يزيد
 فسلمت عليهم وبدأت به وقلت من الرجل ومن القوم ؟ فارم القوم
 ينظرون الى الشيخ هيبآ له . فقال الشيخ « رجل من مهرة بن حيدان
 ابن عمرو بن الحاف بن قضاة . » فقلت حياكم الله وانصرفت فقال
 الشيخ « قف ايها الرجل ، نسبتنا فانتسبنا لك ثم انصرفت ولم تكلمنا . »
 قلت ما انكرت سوءاً . ولكن ظننتكم من عشيرتي فانا سبكم . فانتسبتم
 نسباً لا اعرفه . ولا اراه يعرفني . » قال يزيد فامال الشيخ لثامه وحسر
 عمامته وقال « لعمري لئن كنت من جذم من اجذام العرب لا عرفناك . »
 قلت فاني من اكرم اجذامها . قال الشيخ : « فان العرب بنيت على
 اربعة اركان مضر وربيعة واليمن وقضاة . فن ايهم انت ؟ » قلت
 من مضر . قال الشيخ « امن الارحاء ام من الفرسان ؟ » قال يزيد فعلمت
 ان الارحاء خندق وان الفرسان قيس فقلت من الارحاء . قال « فانت
 اذاً من خندق . » قلت اجل . قال « افن الارنية ام من الجمجمة ؟ »
 قال يزيد فعلمت ان الارنية مدركة وان الجمجمة طابخة فقلت من
 الجمجمة . قال « فانت اذاً من طابخة . » قلت اجل . قال « افن الصميم
 ام من الوشيط ؟ » قال يزيد فعلمت ان الصميم تميم وان الوشيط الرباب
 فقلت من الصميم . قال « فانت اذاً من تميم . » قلت اجل . قال « افن
 الاكرمين ام من الاحلمين ام من الاقلين ؟ » قال يزيد فعلمت ان
 الاكرمين زيد مائة وان الاحلمين عمرو بن تميم وان الاقلين الحارث

ابن تميم فقلت من الاكرمين . قال « فانت اذاً من زيد مناة . » قلت اجل . قال « افن الجدود ام من البجورام من الثماد؟ » قال يزيد فعلمت ان الجدود مالك وان البجور سعد وان الثماد امرؤ القيس بن زيد مناة فقلت من الجدود . قال « فانت اذاً من بنى مالك؟ » قلت اجل . قال « افن الذرى ام من الارداف؟ » قال يزيد فعلمت ان الذرى حنظلة وان الارداف ربيعة ومعاوية وهما الكردوسان فقلت من الذرى . قال « فانت اذاً من بنى حنظلة . » قلت اجل . قال « افن البدور ام من الفرسان ام من الجراثيم؟ » قال يزيد فعلمت ان البدور مالك وان الفرسان يربوع وان الجراثيم البراجم فقلت من البدور . قال « فانت اذاً من بنى مالك بن حنظلة . » قلت اجل . قال « افن الارنية ام من اللجين ام من القفا؟ » قال يزيد فعلمت ان الارنية دارم وان اللجين طهية والعدوية وان القفا ربيعة بن حنظلة فقلت من الارنية . قال « فانت اذاً من دارم . » قلت اجل . قال « افن اللباب ام من الهضاب ام من الشهاب؟ » قال يزيد فعلمت ان اللباب عبدالله ، وان الهضاب مجاشع ، وان الشهاب نهشل فقلت من اللباب . قال « فانت اذاً من عبدالله . » قلت اجل . قال « افن البيت ام من الزوافر؟ » قال يزيد فعلمت ان البيت بنو زرارة وان الزوافر الاحلاف فقلت من البيت . قال « فانت اذاً من بنى زرارة » قلت اجل . قال « فان زرارة ولد عشرة : حاجباً ولقيطاً وعلقمة ومعبداً وخزينة وليداً وابا الحارث وعمراً وعبدمناة وما لكا . فن ايهم انت؟ » قلت من بنى علقمة . قال « فان علقمة ولد شيان ولم يلد غيره . فتزوج شيان ثلاث نسوة : (١) مهدد بنت حمران بن بشر بن عمرو بن مرثد فولدت له يزيد (٢) وعمرة بنت بشر بن عمرو بن عدس فولدت له المقعد (٣) وعكرشة بنت حاجب بن زرارة بن عدس فولدت له المامور . فلا يتهن انت؟ »

قالت لمهدد. قال الشيخ « يا ابن اخي ما اقترقت فرقتان بعد مدركة الا كنت في افضاهما . حتى زاحمك اخواك فانهما ان تلدني امهما احب الى ان تلدني امك . يا ابن اخي اتراني عرفتك ؟ » قال يزيد فقلت اى وايبك اى معرفة ! »

ومما يدل على شدة اعتناء العرب بانسابها حديث ابى بكر الصديق مع دغفل النسابة فيما ذكره ابن عباس . قال حدثني على بن ابى طالب : « اما امر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ان يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وانا معه وابو بكر فدفعنا الى مجلس من مجالس العرب فتقدم ابو بكر وكان نسابة فسلم فردوا عليه السلام فقال ممن القوم ؟ قالوا من ربيعة . فقال افمن هامتها ام من لهازمها ؟ قالوا من هامتها العظمى . قال فاي هامتها العظمى اتم ؟ قالوا ذهل الاكبر . قال افنكم عوف الذى يقال له لاجر بوادى عوف ؟ (يعنى ان عوفا اذا كان بوادى لا يذكروا) قالوا لا . قالوا لا . قال افنكم بسطام ذواللواء ومتهى الاحياء ؟ قالوا لا . قال افنكم حساس بن مرة حامى الذمار ومانع الجار ؟ قالوا لا . قال افنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالباها نفسها ؟ قالوا لا . قال افنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا لا . قال افانتم اخوال الملوك من كندة ؟ قالوا لا . قال فلستم ذهلاً الاكبر . اتم ذهل الاصغر . فقام اليه علام قد بقل وجهه يقال له دغفل فقال :

ان على سائلنا ان نسأله والعبيء لا تعرفه او تحمله

(يعنى انك لا تعرف ثقل الحمل الا اذا حملته .) يا هذا انك قد سألنا فلم نكتملك شيئا . فن الرجل انت ؟ قال ابو بكر رجل من قريش . قال بخ بخ ! اهل الشرف والرياسة . فن اى قريش انت ؟ قال من تيم بن مرة . فقال دغفل امكنت والله الراعى من ثغرة نحر ك ! افنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجعما ؟ قال ابو بكر لا . قال افنكم هاشم الذى

هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستون عجاف؟ قال لا . قال افنكم
 شية الحمد مطعم طير السماء الذي كان في وجهه قرماً يضئ ليل
 الظلام الداجي؟ قال لا . قال افن المفيضين بالناس انت؟ قال لا .
 قال افن اهل الندوة انت؟ قال لا . قال افن اهل الرفادة انت؟ قال لا .
 قال افن اهل الحجابة انت؟ قال لا . قال افن اهل السقاية انت؟ قال لا .
 قال علي واجتذب ابو بكر زمام ناقته فرجع الى النبي صلى الله عليه
 وسلم . فقال دغفل صادف درء السيل درءاً يصدعه! اما والله لو ثبت
 لاخبرتلك انك من زمعات قريش او ما انا بد غفل قال علي فتبسم
 النبي صلى الله عليه وسلم . قال علي فقلت لابي بكر لقد وقعت من الاعرابي
 علي باقمة . قال اجل! مامن طامة الا وفوقها طامة . ان البلاء
 مؤكل بالمنطق .

اما حديث البخاري الذي جمعه حجة قاطمة لعدم معلومية الاب
 عند العرب فانه لم يفهم معناه فقد صرح البخاري ان النكاح الموجود اليوم
 كان موجوداً في الجاهلية ولم نزل عليه اشراف العرب ومن يليهم .
 واما حدثت تلك الانواع الاخر في العصر الاخير بعد عمرو بن لحي
 الذي حسن للعرب دين المجوس فصاروا يبدون الاثران وصارت فيهم
 البغايا وهن الاماء والسواقط ولا تكاد توجد منهن امرأة من صميم
 العرب فضلاً عن قريش . فما اشتهر من البغايا بمسكة النابغة وهي امة
 معلومة . وليست منهن وليدة زمعة بن الاسود التي عهد في ابنتها
 عتبة بن ابي وقاص الى اخيه سعد فتحاكم هو وعبد بن زمعة . فنقض
 به النبي صلى الله عليه وسلم لعبد وامر سودة بالاحتجاب منه لان ذلك
 شاذ نادر لا يعتد به . ومنهن بالطائف سمية جارية الحارث بن كلدة .
 ولما طلب ابو سفيان من الحمار الذي شرب عنده بغياً لم يجد غيرها
 مع كثرة اهل الطائف فقال هاتها علي او صافها الذميمة التي بين له

ولا يحتج بان اباسفيان كان من اشراف قريش لان الشاذ لا يكون اصلاً يقاس عليه .

استدل المعترض بالقسم الثاني من تقسيم البخاري وهو ان الرجل كان يقول لامرأته اذا طهرت من طمئها ارسلني الى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسه ابداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي استبضعت منه . فاذا تبين حملها اصابها زوجها اذا احب وانما يفعل ذلك رغبة في محابة الولد . فهذا يدل ايضاً على ما ذكرنا لان هذا الذي امر امرأته ان تستبضع من الطبقة السفلى يدل عليه طلبه لولد نجيب . وذلك لعلمه انه لا يأتي بنجيب . كما قال الفيلسوف ابو العلاء المعري :

لوان بنى افضل اهل عصري لما آثرت ان احظني بنسل
فكيف وقد علمت بان مثلي خسيس لا يجيئ بغير فصل
اما القسم الثالث من تقسيم الامام البخاري وهو جماعة ياتون
امرأة واحدة فتالحق ولدها بمن شاءت منهم فانا نقول ان هذه معلومة
عند العرب بانها بنى ذات جمال فيذهب اليها عدد من السفهاء والاحداث
فيقع ما ذكر . وهذه نادرة الوجود . وانما هي وقائع قليلة حدثت
بعد عمرو بن لحي كما تقدم .

اما القسم الرابع فهو البنايا المعروفات اصحاب الرايات وهن امام
وقليل من الطبقة السافلة . يدل عليه الآية الثالثة بعد الثلاثين في سورة
النور « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصناً لتبتغوا عرض
الحياة الدنيا . » لان الفتيات في عرف القران لا تطلق الاعلى الاماء .
يدل عليه الآية الرابعة بعد العشرين في سورة النساء « ومن لم يستطع
منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فن ماملكت ايمانكم من

فنياتكم المؤمنات . « ولو وجد بغى بين حرائر العرب لما خص النهى
عن البغاء بالاماء . فتخصيص النهى بالاماء يدل على ان البغاء لم يكن
بين حرائر العرب وان ائمة العرب عن بغاء الحرائر قد اغنى عن نزول
النهى عنه .

وقد كنا قصدنا في هذه العجالة الى ان نذكر بعض ما للعرب
مما ينفي عنهم ما رماهم به هذا المتحامل ولسنا بصدد التنبية على حسوه
الذى يسر في ارتغائه (١) تفصيلاً لا كتفائناً بظهور الحقيقة . ولم
تعرض للطنن في دينه قصاصاً لانا لو فعلنا لكننا مثله ولان مثل هذه
الزعازع لا تؤثر في ديننا القويم . فما مثله الا مثل جبل مرت عليه
ريح فطارت في السماء وبقي الجبل كما هو . ولا ندرى ما سبب غيظ
الدعاة من هذا الدين الذى لا تزال الناس تعتقه ولا يرى فرد خارجاً منه .
ولم نتعرض لتبيين ما في رسالته من اغلاط واضحة في لغة العرب
لقلة جدوى ذلك واتكالا على وضوحها وكثرة من يعرفها .



(١) يضرب مثلاً لمن يظهر شياً ويضمر خلافه .